

الإمامان ابن كثير والصابوني، وملامح تفسير القرآن بالقرآن

ط/د . نصيرة بوجلول

إشراف د . بن نعمة عبد الغفار

جامعة أحمد بن بلة 1 - وهران

الملخص:

اعتنى العلماء بدراسة القرآن الكريم من جوانب متعددة، من بينها تفسير القرآن الكريم الذي سلك فيه التأليف مناهجاً مختلفة كتفسيره بالمأثور، وتفسيره بالرأي، ومن أشهر الكتب وأكثرها في باب التفسير بالمأثور نذكر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الذي اعتمد فيه مؤلفه على تفسير القرآن بالقرآن، فقد حاز الكتاب بدوره اهتمام العديد من العلماء، تحقيقاً ودراسةً واختصاراً، ومن بين مختصري هذا الكتاب محمد علي الصابوني، الذي انفرد فيه بمنهج خاص، و بناءً عليه تأتي هذه الدراسة بصدد المقارنة بين منهج الإمام ابن كثير والإمام الصابوني في جانب تفسير القرآن بالقرآن.

Abstrat :

The imams ibn katheer and sabouni.the interpretation of Quran by Quran,el hawamime is a model.

Sientists considered thé study of the Holy Quran in many ways,including the interpretation of the Quran,which the author of the authorship different approaches as interpreted by thé author and interpeeted by opinion; Among the most famous books and most of them in interpretation of the verse mention interpretation of the Great Quran of the Keeper of Ibn Katheer,who relied on ibterpretation of the Quran by Quran; The book has recieved the the attention of many scholars, investigation, study,short ans among the author of this book approach and based on this study comes in Comparison between the approach of imam ibn katheer and imam Sabouni in the interprétation of Quran by Quran.

مقدمة:

يعتبر تفسير ابن كثير من أكثر التفاسير التي اهتم بها الباحثون والمختصون في الدراسات القرآنية، ولأهميته العلمية والمعرفية فقد التزمت الكتب والأبحاث العلمية بدراسته بما شمل من أصول وفروع وجزئيات، ثم إن اهتمامه بالدقة والأسانيد واعتماده على أهم مصادر التفسير جعلت منه تفسيراً مميزاً ومصدراً معتمداً.

لقد كان تفسير القرآن بالقرآن من أهم ما اعتمد عليه ابن كثير في شرح معاني القرآن الكريم، بل جعله من أهم كتب التفسير بالمأثور، وهو القسم الذي يجعل التفاسير المندرجة تحته في منأى عن الاتهامات بعدم الدقة أو توظيف البدع، أو مخالفة السنة، أو توظيف الرأي في فهم كتاب الله تعالى وشرح معانيه.

من جهة أخرى فتفسير ابن كثير لم يلق الاهتمام فقط في البحث العلمي الحديث، بل اهتم به العلماء أيضاً قديماً، سواء بالاستدلال، أو الشرح، أو الاختصار، أو غيرها، لذلك نقف على جهود الإمام الصابوني الذي عمد إلى اختصار تفسير ابن كثير والاهتمام بمسائله، وكتابه أيضاً مُصنّف ضمن كتب التفسير بالمأثور.

من خلال هذا المقال نجتهد في التعريف بالإمامين، وتحديد نماذج من ملاح تفسيرهما القرآن بالقرآن، مع توضيح ذلك بأمثلة من القرآن الكريم.

أولاً: ترجمة ابن كثير:

نسبه مولده:

هو الإمام المحدث الحافظ ذو الفضائل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير بن ضوء بن كثير القيسي¹ بن درع القرشي² البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي³.

اختلفت الأقوال في مولد ابن كثير ما بين سبعمائة هجري⁴ وإحدى وسبعمائة⁵ لكن أكثر من ترجموا له ذكروا بأنه وُلد سنة سبعمائة (700هـ)، الموافق لاثنتان وثلاث مائة وألف للميلاد (1302م)⁶ بقرية من أعمال بصرى⁷ الشام⁸ كان أبوه من أهل بصرى وأمه من " مجيدل"⁹ ¹⁰ وقد أشار إلى ذلك في كتابه البداية والنهاية بقوله: "... ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التي منها والدة"¹¹

وهذا هو الراجح لقوله في كتابه البداية والنهاية لما ترجم لوالده حين قال: "توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة في قرية مجيدل القرية، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه إلا كالحلم."¹²

ج- شيوخه:

نبوغ ابن كثير في شتى العلوم راجع إلى المناهل التي استقى منها معارفه إذ أنه تتلمذ على أيدي شيوخ وعلماء كانت لهم اليد الطولى في صقل موهبته و تنمية معارفه ، وقد أشار إليهم في كتابه الشهير البداية والنهاية، وهم كالتالي:

- القاسم بن عساكر (ت 723هـ): وصفه بشيخنا لما ترجم له قال: "شيخنا الجليل المعمر الرحلة بهاء الدين."¹³
- شمس الدين الشيرازي (ت 723هـ): وقد أشار إلى ذلك لما ترجم له. وسبق الحديث عنه.¹⁴
- ابن اللباد (ت 724هـ): وهو الشيخ محمد جعفر بن فرعوش، قال: "وقد قرأت عليه شيئاً من القراءات"¹⁵

- أبو زكريا بن فارس الشيباني (ت 724هـ): وقد صرح ابن كثير بسماعه منه قال: " وسمعنا عليه الدارقطني وغيره. "16
- ابن عمر الصقلي (ت 725هـ): قال: " سمعنا عليه شيئاً منها". أي سنن البيهقي. 17
- ابن الزمكاني (ت 727هـ): كان يصفه بشيخنا وقال فيه: " أما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درس أحسن منها. "18
- ابن تيمية (ت 728هـ): كان متأثراً به كما قال ابن حجر: " وأخذ عن ابن تيمية فافتن بحبه وامتنح لسببه. "19
- كمال الدين عبد الوهاب (ت 750هـ): وقد تولى رعاية أخاه إسماعيل بعد وفاة والده وأخذ عنه العلم، قال ابن كثير: " ثم تحوّلنا من بعده في سنة سبعٍ وسبعمئة إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوفاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر والله أعلم. "20

د- آثاره:

تلاميذه:

- تميّز مكانة ابن كثير العلميّة جعلته يجلب الأسماع ويلفت الأنظار، فقد تتلمذ على يده عدد كبير من الذين كان لهم الدور البارز في المجال العلمي، وسنكتفي بذكر بعضهم وهم:
- الزركشي: " فقد أخذ عن ابن كثير في الحديث وقرأ عليه مختصره ومدحه. "21
- يحيى بن يوسف بن زعيب الرحبي: قال ابن حجر: " و لازم ابن كثير و أخذ عنه فوائد حديثية، و أخذ عن كثير من أصحاب ابن تيمية. "22
- ابن حجي: قال: " وما أعرف أيّ اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا وأفدت منه. "23
- سعد الدين النواوي*: قرأ عليه علوم الحديث الذي ألفه وأذن له بالفتوى. 24

2 - مؤلفاته:

- بلغ ابن كثير مكانة مرموقة في العلم، ومما يشهد له على سعة علمه وغزارة مادته في جميع العلوم خاصة في التفسير والحديث والتاريخ، مؤلفاته التي فاقت خمسين مؤلفاً²⁵، وسنكتفي بذكر البعض منها:
- تفسير القرآن العظيم: حققه سامي بن محمد سلامة، ويقع في ثمان مجلدات، في الطبعة الثالثة سنة 1420هـ - 1999م، و حققه كذلك محمد حسين شمس الدين و قد نشرته دار الكتب العلميّة ببيروت، في طبعتها الأولى سنة 1419هـ، أما الطبعة الأولى فبدون تحقيق، نُشرت من طرف دار ابن حزم، وكذا مكتبة دار التراث بالقاهرة، قيل أن هذا الكتاب مختصر من تفسير آخر، وقد فند هذا القول سلمان اللاحم في دراسة له بعنوان منهج ابن كثير في التفسير ويظهر ذلك في اختلاف طريقة كل منهما. 26
- أما مختصرات هذا الكتاب فقد فاقت أي كتاب آخر، حيث أحصاها صاحب التفاسير المختصرة فبلغت حوالي خمسة عشر مختصراً. 27

- تحفة الطالب بمعرفة مختصر ابن الحاجب: حَقَّقه عبد الغني بن حميد بن محمود الكبيسي، نشرته دار حراء بمكة المكرمة، وكذلك دار ابن حزم في طبعته الثانية سنة 1416هـ - 1996م، يقع في جزء واحد.
- جامع المسانيد والسنن: حَقَّقه عبد الملك بن عبد الله الدهيش، نشرته دار خضر بيروت، طبع على نفقة المحقق في طبعته الثانية سنة 1419هـ - 1998م، يقع في عشرة أجزاء.
- قصص الأنبياء: حَقَّقه مصطفى عبد الواحد، وهو يقع في جزأين، نشرته دار الكتب الحديثية بمصر، أشار فيه المحقق إلى أن هذا القسم من كتاب البداية والنهاية.²⁸
- فضائل القرآن: نشرته مكتبة ابن تيمية، طبع الطبعة الأولى سنة 1416هـ، وهو عبارة عن جزء واحد.
- الفصول في السيرة: حَقَّقه وعلق عليه محمد العيد الخطراوي، محي الدين مستو، نشرته مؤسسة علوم القرآن، طبع الطبعة الثالثة سنة 1403هـ، مكون من جزء واحد.
- السيرة النبوية: حَقَّقه مصطفى عبد الواحد، نشرته دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت سنة 1395هـ - 1976م، يقع في أربعة أجزاء.
- معجزات النبي صلى الله عليه وسلم: وقد حَقَّقه السيد إبراهيم أمين أحمد، نشرته المكتبة التوفيقية، يتكون من جزء واحد.
- البداية والنهاية: وهو كتاب في التاريخ، يقع في أربعة عشر جزءاً، حَقَّقه مكتبة تحقِّق التراث، ونشرته دار إحياء التراث العربي و مؤسسة التاريخ العربي ببلنجان.
- النهاية في الفتن والملاحم: وقد حَقَّقه محمد أحمد عبد العزيز، نشرته دار الجيل بيروت.
- الباعث الحثيث إلى اختصار علوم الحديث: حَقَّقه أحمد محمد شاكر، نشرته دار الكتب العلميّة، بيروت في طبعته الثانية.

هـ - وفاته:

توفي رحمه الله بعد أن فقد بصره²⁹، يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة³⁰، عن عمر يناهز أربع وسبعين سنة، كانت جنازته حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق.³¹

ثانياً: ترجمة محمد علي الصابوني:

نسبه ومولده ونشأته:

هو محمد علي بن جميل الصابوني، ولد في مدينة حلب في سوريا عام ثلاثين وتسع مائة وألف (1930م)³²، وقيل سنة 1928م³³، والراجح القول الأول لورود ذلك عن تلميذه وقد سمع منه ذلك.³⁴ تربى الشيخ في بيت علم ودين، وفي أسرة عريقة بالعلم، فوالده من علماء حلب الشهباء، وكان قيّم الجامع الأموي (الجامع الكبير) في مدينة حلب الشهباء، ومسؤول التدريس والوعظ فيه، وهذا أمر أثر كثيراً على الصابوني من صغره.³⁵

ب - مهنة:

عُين الصابوني مدرساً للثقافة الإسلامية في الثانويات العامة ودور المعلمين في حلب، وبقي في ذلك ثماني سنوات حتى عام اثنتان وستين وتسعمائة وألف (1962م)، ثم انتدب للتدريس بمكة المكرمة في كلية الشريعة بجامعة أم القرى³⁶، قال: "... فكان أن سهل الله تعالى جوار البلد الأمين - مكة المكرمة - صانها الله وحرسها من كل سوء وشر، مدرساً منتدباً للتدريس في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية."³⁷، حيث أنه بقي فيها ما يقارب ثمان وعشرين سنة، وأثناء ذلك عُين باحثاً في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في الجامعة، ثم انتقل مستشاراً في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي³⁸، ثم بعد ذلك فرغ للتأليف، والبحث العلمي.³⁹

شيوخه:

وُلد الصابوني بسوريا، وطلب العلم فيها، ثم سافر إلى مصر وأتم دراسته هناك، وبعدها رجع إلى بلده الأم فاشتغل بالتدريس، ثم انتقل إلى مكة المكرمة، وكل هذه الأماكن تعتبر دوحة العلم وملاذ العلماء، لذا فإن الصابوني وُفق أن يتتلمذ على صفوة من المشايخ الذين اشتهروا في ميدان العلم، وقد ذكرهم في إجازة له فقال: "وإني بفضل الله أروي العلوم الشرعية والعربية (بين قراءة وسماع وإجازة) عن جملة من الجهابذة والمشايخ الأعلام من أبرزهم:

- الشيخ المرابي الوالد جميل بن علي الصابوني الحلبي (ت 1396هـ) رحمه الله.
 - شيخ الشهباء المحدث الفقيه محمد نجيب سراج الدين الحلبي (ت 1373هـ) رحمه الله.
 - شيخ القراء في الديار الحلبية محمد نجيب خياطة الحلبي (ت 1387هـ) رحمه الله.
 - الشيخ المحدث المؤرخ محمد راغب بن محمود الطباخ الحلبي (ت 1370هـ) رحمه الله.
 - الشيخ المفسر المحدث الفقيه أحمد بن محمد الشماع الحلبي (ت 1373هـ) رحمه الله.
 - الشيخ الفقيه محمد سعيد بن أحمد الإدلي الرفاعي الحلبي (ت 1370هـ) رحمه الله.
 - الشيخ المحدث علوي بن عباس المالكي الإدريسي المكي (ت 1391هـ) رحمه الله.⁴⁰
- هذا وقد أضاف إلى تلميذه عصام شحادة آخرين وهم:
- الشيخ أمين الله عيروض: درس عليه علم الخطابة.
 - الشيخ عبد الجواد عطّار: تعلم على يديه تلاوة القرآن الكريم.
 - الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: حضر له دروس من كتاب الأم للشافعي.
 - الشيخ عبد القادر عيسى: حضر عنده دروساً في التصوف.
 - الشيخ عبد الله الحمّاد: درس عليه النحو.
 - الشيخ عبد الله سراج الدين: أستاذه في الحديث وعلومه.
 - الشيخ عبد الله سلطان (الحفيد): كان مديراً للمدرسة الشرعية التي درس فيها الشيخ.
 - الشيخ عبد الوهّاب سكر: درس عليه الأدب في الثانوية.

- الشيخ محمد عبد الحكيم: درس عليه البلاغة والأدب في الثانوية الشرعية.
- الشيخ محمد الحماد: درس عليه في الثانوية الشرعية.
- الشيخ محمد النبهان: درس عليه علم التصوف.⁴¹

د- آثاره:

1- تلاميذه:

جمع الصابوني حوله عددا كبيرا من التلاميذ والطلاب درسهم في مختلف البلاد، وبالنظر إلى العصر الذي عاش فيه وتطور الدراسات، فإنه لا يمكن أن نحصر التلاميذ الذين سمعوا منه العلوم في عدد معين، إذ قال لأحد تلاميذه أنه: " كان له في أندوسيا أكثر من ألف طالب تتلمذوا على يديه لمدة تتراوح ما بين أربع إلى عشر سنوات."⁴²، و عليه فإننا سنكتفي بذكر بعضهم من الذين ذاع صيتهم في البلاد وهم:

- الدكتور صالح بن حميد: إمام الحرم المكي، ورئيس مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية، درسّه الشيخ أثناء تدريسه في الحرم المكي.

- الدكتور أحمد الحميد: دكتور في جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية.

- الدكتور راشد الراجح: مدير جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية.

- الدكتور أسامة الخياط: إمام المسجد الحرام.

- الشيخ سيد محمد علوي المالكي: درسه في الجامعة.

- أحمد محمد علي الصابوني: ابن الشيخ، وملازمه في كل أموره، وهو المنسق العام لكل أعمال الشيخ، وقد حصل على شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية، وحضر كل دروس والده.⁴³

- عصام شحادة: قال: " فقد درست على يديه بعضاً من تفسير آيات الأحكام، وجلست معه عدة مرات في منزله، ولما توسم في الخير، أجاز لي أن أدرس من كل كتبه، وأن أنقل منها بلغتي، وأعطاني بعضاً من الأوراق بخط يده."⁴⁴

2- مؤلفاته:

رغم ما كان يقوم به الصابوني من مهام، إلا أنّها لم تشغله عن التأليف، بل خلف للمكتبة الإسلامية ثروة علمية في مختلف العلوم الشرعية خاصة التفسير، وترجم العديد منها إلى لغات مختلفة منها التركية، والإنجليزية والفرنسية والملاوية، والهوساوية... وغيرها.⁴⁵، ومن هذه المصنفات نذكر:

- صفوة التفاسير: نشرته دار القرآن الكريم ببيروت، طبع على نفقة السيد حسن عباس الشربتلي في طبعته الرابعة سنة 1403هـ - 1981م، يقع في ثلاثة أجزاء.

- التفسير الواضح الميسر: نشرته المكتبة العصرية ببيروت، طبع الطبعة الثامنة سنة 1428هـ - 2007م، يقع في جزء واحد.

- روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن: نشرته مكتبة الغزالي بدمشق، ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت، طبع على نفقة السيد حسن عباس الشربتلي، في طبعته الثالثة سنة 1400هـ - 1980م، يقع في جزأين.

- شبّهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم: طُبِعَ على نفقة السيد حسن عباس الشربتلي، سنة 1400هـ - 1980م، وجعله وقفاً لله تعالى.
- معاني القرآن للتّحّاس، تحقيق، نشرته جامعة أم القرى بمكة المكرمة في طبعته الأولى سنة 1409هـ.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى السنيكي. تحقيق، نشرته دار القرآن الكريم ببيروت في طبعته الأولى سنة 1403هـ - 1983م، يقع في جزء واحد.
- من كنوز السنة (دراسات أدبية لغوية من الحديث الشريف): نشرته مكتبة رحاب بالجزائر في طبعته الرابعة سنة 1410هـ - 1990م.
- وقد ذكرهم تلميذه وهم حوالي ثلاث وأربعين مؤلفاً نذكر منها:
 - التبيان في علوم القرآن.
 - قبس من نور القرآن الكريم .
 - السنة النبوية قسم من الوحي الإلهي المنزل.
 - إيجاز البيان في سور القرآن.⁴⁶
- أما الكتب التي اختصرها فهي أربع:
 - مختصر تفسير الطبري (المسمى جامع البيان في تأويل آي القرآن) بالاشتراك مع الدكتور صالح أحمد رضا، نشرته مكتبة رحاب بالجزائر في طبعته الأولى 1403هـ - 1983م، والطبعة الثانية سنة 1408هـ - 1687م بالجزائر، يقع في جزأين من القطع الكبير.
 - مختصر تفسير ابن كثير.
 - وأضاف صاحب التفاسير المختصرة :
 - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي.
 - درة التفاسير بهامش القرآن الكريم.⁴⁷
- ثالثاً: ملاحم تفسير القرآن بالقرآن عند ابن كثير والصابوني:

مما هو معروف عن تفسير ابن كثير أنّه من أشهر كتب التفسير بالمأثور، لاعتماده على جانب تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة، ثمّ بأقوال الصحابة والتابعين، قال الزُّرقاني في كتابه مناهل العرفان: " و تفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً."⁴⁸

ومن أفضل طرق تفسير القرآن تفسيره بالقرآن، لأنّ ما أُجمل في موضع، فقد فسّر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بُسط في موضع آخر، كما قال ابن تيمية في مقدمة كتابه في أصول التفسير، و ابن كثير في مقدمة تفسيره⁴⁹، " ذلك أنّ خير من يمكن أن يفسر الكلام ويوضحه فائله."⁵⁰

والحافظ ابن كثير ممّن اهتم بهذا النوع اهتماماً كبيراً، فاق غيره من المفسرين في هذا، حيث أنّه يجمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية أو تؤيده وتقويه، والتي تدور حول موضوع واحد.

أما الصابوني فإنه حافظ على هذا النوع من التفسير والآيات التي استدلت بها ابن كثير إلى حد بعيد مع مراعاة منهجه في ذلك.

وحتى يتضح لنا ذلك في هذا الجانب نعقد هذه المقارنة بينهما من خلال هذه النقاط:

➤ قد يذكر ابن كثير عند تفسير آية ما، ما يوضح معناها من القرآن ويبينه، فيذكر الصابوني تفسير ابن كثير والآية التي استدلت بها:

و من أمثلة ذلك ما ورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الدخان/ 02. يقول تعالى مخبراً عن إنزاله للقرآن في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ البقرة/ 01. وكان في شهر رمضان كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة/ 184.⁵¹ وقد ذكر الصابوني هذا.⁵²

➤ وفي أحيان قليلة قد يحذف الصابوني آية ويقتصر على آية واحدة:

من ذلك ما جاء به ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، غافر/ 17. قال: أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال عز وجل: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، لقمان/ 28. وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر/ 50.⁵³

أما الصابوني فقد اكتفى بذكر الآية الأولى، وحذف الآية الثانية.⁵⁴

➤ أحياناً يفسر ابن كثير آية بآية ثم ينتقل لبيان الآية المفسرة بآية ثالثة، وأكثر، فيذكرها

الصابوني مع الاختصار على محل الشاهد منها:

و من أمثلة ذلك ما ورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾، غافر/ 11. قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: " هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة/ 28. قال: " وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية، والمقصود أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ السجدة/ 12. فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوها الرجعة أشد مما سألوها أول مرة فلا يجابون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام/ 27. فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامها وأغلاها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاطر/ 37. كقوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، المؤمنون/ 107.⁵⁵

و قد ذكر الصابوني هذا.⁵⁶

➤ قد يذكر ابن كثير في مواضع متعددة نظائر للآية التي يفسرها، أما الصابوني فيذكر هذه النظائر غالباً، كما قد يقتصر على محل الشاهد منها، وقد يحذفها وهذا قليل:

و مثال ذلك ما ذكره ابن كثير عند تفسير قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ الدخان/08. قال: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الأعراف/ 158. ⁵⁷، وقد ذكر الصابوني هذا. ⁵⁸

➤ و أما ما ذكره مع الاختصار على محل الشاهد من الآية:

فمثالها ما جاء به ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ الشورى/ 17. بعد أن ذكر أقوال التابعين، قال: وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد/ 25. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن/ 07- 08- 09. ⁵⁹

➤ أما الصابوني فذكر هذه النظائر مع الاختصار في الآية الثانية على محل الشاهد:

ومنها وهو قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن/08-09. ⁶⁰

➤ قد يحذف الصابوني في مرات قليلة هذه النظائر اتل يقدر يذكرها ابن كثير:

ومن أمثلة ذلك، ما جاء به ابن كثير عند تفسير قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿إِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فصلت/ 36. قال: "أي أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه." ⁶¹ وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف/ 199- 200، وفي سورة المؤمنون عند قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ، وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ المؤمنون/ 96-97-98. ⁶²

أما الصابوني فأورد القول أما النظائر فقد حذفها. ⁶³

➤ أحياناً يذكر ابن كثير قولين، فيذكر لكل منهما ما يؤيده ويفسره ويوضحه من القرآن، فيذكر

الصابوني ذلك مع الاختصار على آية واحدة لكل قول:

ومن أمثلة ذلك ما جاء به ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ الدخان/ 15. قال: هذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه قوله تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب و رجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿المؤمنون/ 75﴾، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿الأنعام/ 28﴾.

والثاني: أن يكون المراد: إننا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرين فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿يونس/ 98﴾، ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ ﴿الأعراف/ 88-89﴾، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.⁶⁴

➤ أما الصابوني فقد أورد هذا مع الاختصار على آية واحدة في القول الأول: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿الأنعام/ 28﴾.⁶⁵

خاتمة:

مما سبق يتبين مدى اهتمام أهل التفسير بتفسير القرآن الكريم بالمأثور، حتى وإن خضع تفسير بعضهم إلى الاختصار، ويظهر ذلك جلياً عند محمد علي الصابوني فقد حافظ على قدر كبير من الأحاديث، وأقوال الصحابة، وأقوال التابعين، وأسباب النزول الصحيحة، كما أنه أورد كثير من القراءات القرآنية التي أشار ابن كثير إلى من قرأ بها، أما القرآن الكريم فإنه حاز عند الصابوني على اهتمام منقطع النظير فحافظ على الآيات التي استدل بها ابن كثير في جانب تفسير القرآن بالقرآن عند تفسير الحواميم، فاقصر على محل الشاهد من الآية غالباً في النظائر والآيات التي تُفسر الآية المُفسرة. و قد يحذفها وهذا قليل، ونادراً ما يقتصر على آية واحدة تؤيد القول لما تعدد الأقوال عند ابن كثير، وهذا يحلينا على نقطة أخرى وهي أنّ الصابوني اعتمد في منهجه غالباً على الحذف وتعلق هذا بـ:

- ما هو ضعيف: ومن ذلك نذكر الأحاديث الضعيفة، أسباب النزول، وأقوال الصحابة والتابعين، كما حذف الأحاديث الغريبة، والموضوعة، والأسانيد التي يذكرها ابن كثير عند روايته للحديث، كما أنه كثيراً ما يناقش ابن كثير هذه الروايات والأسانيد، وقد حذفها الصابوني.

- ما هو مكرر: واختص هذا بالروايات.

- القراءات القرآنية التي لم يُبين ابن كثير من قرأ بها.

- الروايات الإسرائيلية، والمسائل اللغوية والنحوية.

كما أنه اعتمد على منهج الإبقاء، وتعلق ذلك بـ:

- ما هو صحيح: من ذلك الأحاديث، أقوال الصحابة، أقوال التابعين، أسباب النزول.

- القراءات القرآنية التي أشار ابن كثير إلى من قرأ بها، وكذا المسائل الفقهية التي لم يذكر ابن كثير فيها خلاف إضافة إلى أقوال المفسرين وإخباراتهم.

الهوامش:

- 1- السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/01، 1403هـ، ص 534.
- 2- الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ط/15 أيار مايو، 2002م، ج 01، ص 320.
- 3- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط/1، 1419هـ، 1998م، مج 06، ص 432.
- 4- ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد- إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1389هـ، 1969م، د/ ط، د/ س، ج 01، ص 39.
- 5- المزري يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/01، 1400هـ، 1980م، ج 01، ص 64.
- 6- البعلبكي منير، موسوعة المورد العربية دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد، دار العلم للملايين، لبنان، ط/01، 1990م، بيروت، مج 01، ص 35.
- 7- " بصرى: في موضعين بالضم والقصر إحداهما بالشام من أعمال دمشق وهي قسبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً." يُنظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط/01، 1993م، ط/02، 1995م، مج 01، ص 441.
- 8- الزركلي، الأعلام، ج 01، ص 320.
- 9- " مجيدل: وذكرها البعض مجدل بكسر الميم، وسكون الجيم وفتح الدال وهو القصر المشرف، وقيل مجدل بفتح الميم، اسم موضع في بلاد العرب." يُنظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، مج 05، ص 56، ص 57.
- 10- ابن كثير، قصص الأنبياء، تح: محمد أحمد عبد العزيز زيدان، دار الحديث، د/ ط، د/ س، ص 06.
- 11- ابن كثير، البداية والنهاية، تح: مكتبة تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان 1413هـ، 1993م، د/ ط، ج 14، ص 37.
- 12- المصدر نفسه، ج 14، ص 37.
- 13- المصدر نفسه، ج 14، ص 124.
- 14- المصدر نفسه، ج 14، ص 126.
- 15- المصدر نفسه، ج 14، ص 131.
- 16- المصدر نفسه، ج 14، ص 132.
- 17- المصدر نفسه، ج 14، ص 137.
- 18- المصدر نفسه، ج 14، ص 152.
- 19- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ط/02، 1392هـ، 1972م، ج 01، ص 445.
- 20- ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 37.
- 21- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 05، ص 134.
- 22- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج 01، ص 449.
- 23- ابن قاضي شهبة أبو بكر بن أحمد تقي الدين، طبقات الشافعية، تح: المحافظ عبد الحلیم خان، عالم الكتب، بيروت، ط/01، 1407هـ، ج 03، ص 86.
- 24- المصدر نفسه، ج 04، ص 25.
- 25- يُنظر: عبد الرحمن المطيري، السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، إ: د- خالد عبد الله القرشي، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1429هـ، 2008م، ص 33، ص 44.
- 26- يُنظر: ابن راشد البركة محمد، التفاسير المختصرة اتجاهاتها ومناهجها، كرسى القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، ط/01، ص 122، ص 123، و يُنظر: سلمان اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، دار المسلم، الرياض، ط/01-1420هـ، 1999م، ص 100.
- 27- يُنظر: ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 254.
- 28- يُنظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، تح: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثية، مصر، ج 01، ص 01.
- 29- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 01، ص 446.
- 30- ابن تغري بردي يوسف، التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار الكتب، مصر، د/ ط، ج 11، ص 123.
- 31- ابن ناصر الدين محمد بن عبد الله، الرد الوافر، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/01، 1393هـ، ص 92.
- 32- ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 164. ويُنظر: شحادة عصام، الصابوني ومنهجه في التفسير من خلال كتابه صفوة التفاسير، إ: د- حسين النقيب، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 09-07-2013م، ص 07، ص 08.

- 33- الرومي فهد، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط/01-1407هـ، 1986م، ج 01، ص 105.
- 34- يُنظر: شحادة عصام، الصابوني ومنهجه في التفسير، ص 07، ص 08.
- 35- المرجع نفسه، ص 08.
- 36- ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 164، ص 165. ويُنظر: شحادة عصام، الصابوني ومنهجه في التفسير، ص 09. و يُنظر: الرومي فهد، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج 01، ص 105.
- 37- الصابوني محمد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، مكتبة رحاب، ط/ 04، 1410هـ، 1990م، ج 01، ص 11.
- 38- ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 164، ص 165، ويُنظر: شحادة عصام، الصابوني ومنهجه في التفسير، ص 09. و يُنظر: الرومي فهد، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج 01، ص 105.
- 39- شحادة عصام، الصابوني ومنهجه في التفسير، ص 10. و يُنظر: ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 165.
- 40- إجازة له على موقعه الشخصي للتواصل الاجتماعي.
- 41- شحادة عصام، الصابوني منهجه في التفسير، ص 11، ص 12.
- 42- المرجع نفسه، ص 12.
- 43- المرجع نفسه، ص 12، ص 13.
- 44- المرجع نفسه، ص 12.
- 45- المرجع نفسه، ص 13.
- 46- المرجع نفسه، ص 13، ص 14.
- 47- ابن راشد البركة، التفاسير المختصرة، ص 87.
- 48- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط/ 03، ج 02، ص 30.
- 49- ابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد، مقدمة في أصل التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط/ 1490هـ، 1980م، ص 39. ويُنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د/ ط، ج 01، ص 03.
- 50- ابن سعيد العمري، الاختصار في التفسير دراسة نظرية ودراسة تطبيقية على مختصر ابن أبي زمنين لتفسير يحيى بن سلام والبعوي لتفسير الثعلبي، كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، ط/ 01، 1436هـ، ص 146. و يُنظر: بن عبد الوهاب محمد، كتاب الله عزّ وجلّ ومكانته العظيمة، د/ د، ط/ د، ص 29.
- 51- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 137.
- 52- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 299.
- 53- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 75.
- 54- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 239.
- 55- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 73.
- 56- ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 237.
- 57- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 138.
- 58- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 299.
- 59- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 110.
- 60- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 273.
- 61- رواه الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل في السنن، كتاب الصلاة، باب ما يقال بعد افتتاح الصلاة، تج: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، المملكة العربية السعودية، ط/ 01، 1412هـ، 2000م، الحديث رقم 1275، ج 02، ص 789.
- 62- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 101.
- 63- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 264.
- 64- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 04، ص 140.
- 65- يُنظر: ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج 03، ص 301.